

القِسم الاول

خصوصيات التفاعل بين قوى الإنتاج وعلاقات
الإنتاج الزراعى فى المجتمع اليمنى القديم

مقدمة القسم

لقد كنت شغوفاً ومشتاقاً للحديث والبحث في هذا الموضوع الهام المتعلق بمسألة الأرض والإنسان في المجتمع البني شديداً التأثير به إلى حد الإحساس بالخوف والقلق العميق ، الذي يعترى أى إنسان وهو مستقيم على سطح منزل تاريخي عريق وهو يتداعى من تحت قدميه قطعة قطعة بسرعة يكتنفها الصمت والهدوء الميت ، خصوصاً وأن سكان هذا البيت لم يكونوا ليدركوا ما هو حال بهم بين لحظة وأخرى ، بل إنهم أيضاً يشاركون أدوات الهدم وعوامل التعرية في فعلها المدمر بوعى منهم أو بدونه . لقد كان هذا بالضبط هو شعورى وأنا أنتقل من منطقة لأخرى إبتداء من مرتفعات حراز الجميلة الساحرة في إمتداد الحيمة والطويلة والمخويت وحتى حجة ورازح وصعده شمالا وغرباً ، ورعية ووصاب وأنس وإريان وإب وبعدان وحتى النادرة ودمت ورداع والبيضاء ومأرب جنوباً وشرقاً ، كما هو شعور كل من له علاقة قربي حيمة إزاء هذه الأرض وغيرها من الأراضي الزراعية في أنحاء اليمن ، والتي إنتزعها الإنسان البني القديم من قبضة الطبيعة القاسية والمتحجرة إنتزاعاً ، وفرض نفسه عليها فرضاً عجيباً لانكاد نعثر له على نظير يفترن به أو قدوة يحتذا بها منذ أكثر من ستة آلاف سنة ، وجعل منها ينبوعاً للخير ومثالا حياً لسحر الطبيعة وجمالها الخلاب الذي وهبها إياه هذا الإنسان بحق أكثر مما وهبته لنفسها ، وذلك حينما نشاهدها اليوم وهى تتداعى قطعة قطعة وتموت كالكائن الحى خلية خلية تحت غطاء من الصمت والذهول المروع الذى أصيب به أهلها إلى الحد الذى لا يدرون معه أى تعبير يمكنهم إستخدامه عن مأساتهم هذه ، ولا أى نوع من الصراخ يتناسب وهذا النوع الجديد من الموت الذى يأكل الأرض من بين أيديهم ويمزق كل ما بينهم وبينها من صلات الرحم والقربى العتيقة ، بل إنهم فى الغالب ومن فرط مأصاهم يبدون مبتسمين ساخرين وفى حالة طبيعية جداً « وشر البلية ما يضحك » كما يقال ، وهم يحدثونك

الحديث المألوف عن أن إنتاج القمح الطعام من الذرة البيضاء أو الشعير .. الخ والذي يباع في السوق بخمسين ريالاً على الأكثر تكلفهم زراعته مائة وخمسون ريالاً على الأقل ، وأنهم لا يزعمون الأرض إلا زراعة شكلية للمحافظة على إثبات حقهم في ملكيتها أو لمجرد اعتبارات إجتماعية معينة تفرض عليهم ذلك لأقل ولا أكثر ، وأن شراء قطعة أرض من عشر لبن في المساء في مدينة صنعاء أو الحديدة أو تعز ويبيعها في الصباح لا يعوضك فارق السعر عن محصول ألف لبنة من تلك الأرض المحتضرة من الذرة والشعير طوال العام فحسب ، بل إنه يجنبك الخسارة المحققة على الاصح ، ويوفر مشقة « الرعوية والنكد وراء الثور والحمار » لك ولجميع أفراد أسرته طوال العام . كما أن ولد صالح يكون بالضرورة ومن الأفضل « غير متعلم » ترسله إلى اقرب منطقة من مناطق البترول المجاوره يستطيع أن يحقق لك من عائد تحويلاته الشهرية أو السنوية نفس النتيجة ، أما لو صار لديك بيتاً للإيجار في المدينة أو دكاناً صغيراً أو كبيراً فيها أو حتى في القرية نفسها لبيع البيسكي كولا وسجائر الروثمان وأنواع المعلبات المستوردة والتسالي ولعب الأطفال القادمة من « هونق كونغ » فانك ولا شك ستكون أسعد حظاً ، خصوصاً إذا ما أستطعت بشطارتك وخبرتك اليمينية الجيدة أن تجمع بين كل هذه الاشكال من التصرفات في وقت واحد ، فستستطيع من خلالها لا أن تحقق حياة أكثر سعادة ومالا أكثر وفرة فحسب ، بل وتستطيع أن تخصص جزء من هذا الدخل الوافر لكى تنفقة بلاعائد وكيفما أنفق على زراعة ما تملكه من أرض حفاظاً على ماء وجهك وأعتبارك الاجتماعى داخل القرية وتكفيراً عن عقدة الذنب العميقة التى ما تزال تطاردك ولم تستطع التخلص منها بعد إزاء هذا الكائن الحى الذى يحتضر « الأرض الزراعية » .

أما إذا كنت أكثر حظاً من السابقين جميعاً وكنت قد فزت بالحصول على إحدى الوكالات التجارية لتصدير البشر وأستيراد البيض أو البسباس أو الما المقلب ، نهايك عن مساحيق التجميل وأحمر شفاه .. الخ . فأنت

سوف لن تكون قد بلغت « ذى تمنى المتمنى » فحسب بل إنك ستكون قد شفيت أيضا من عقدة الذنب السابقة التي ما يزال يعاني منها الكثيرون غيرك لإنك لم تعد فى غنا عن تلك الأرض فحسب بل وغير محتاج إطلاقا لأن تمارس مشاعر الإلتئاء إليها وإلى أهلها ، إلا بأعتبره امتيازاً تجارياً وشخصياً يقوى موقفك عند إبرام التعاقد ، رغم ما قد تسبب لك مثل هذه المشاعر لو أضطرتت إلى الكشف عنها فى غير مثل هذا الموقف من الاحراج والأمتعاض الذى لا يتناسب وأتكتيت صالونات السوبر مان والسوبر ماركت فى شارع الهرم بالقاهرة والشانزلزية فى باريس وغير ذلك من الأماكن الشهيرة فى لندن وروما وغيرها ، هناك حيث يحتسى الكثير من مثل هؤلاء الزنادقة دم اليمن ويغيروا سحنة وجوههم وأسمائهم ونبرات حديثهم حتى لا يقال أنهم من اليمن . !!

وهكذا أصبحت العلاقة الاجتماعية الاقتصادية مع الأرض الزراعية فى اليمن بالنسبة للغالبية العظمى ممن يملكونها من المزارعين وما يزالون يقيمون عليها من الفلاحين هى مجرد عقدة ذنب قديمة جديدة تؤرقهم ليل نهار ، عقدة كائن حتى تمتد جذور وجودهم فى رحمه لأكثر من ستة الاف سنة وهو يحتضر بين أيديهم فى صمت وبلا ضجيج دون أن يقروا على أدراك أسباب هذا الاحتضار ، وهم بدلا من محاولة أكتشاف هذا السبب يحاولون مختارين وغير مختارين تمزيق وبتز كل صالة حقيقية لهم بهذا الكائن قبل أن يقضى نحبه ويلفظ أنفاسه الاخيرة ، ويدون أنفسهم للحياة بدونه ، ناسين أو متناسين - من فرط تعاستهم - أنهم إحدى خلايا هذا الكائن نفسه وأن فى دماره يكمن فناءهم المحقق ، أما تلك القلة ممن أصبح العالم لهم وطننا والسمسرة ديننا ، فإن هذه الارض ومن عليها لم يعد الإلتئاء إليها بالنسبة لهم - كما رأينا - أكثر من مجرد سلعة فى حلقة المازاد أو امتيازاً تجارياً مربحاً عند أبرام التعاقد مع الغير فقط ، ومصدر حرج وأمتعاض يحاولون الترفع بأنفسهم عنه دائماً فى غير مثل تلك المواقف .

هذا بالضبط هو المشهد التراجيدى العجيب الذى تعيشه أرضنا وبلادنا اليوم فى شمال الوطن بالذات ، ولانستطيع أية عين بصيرة أن تنكره أو تشاهده غيره ، والذى كنت ولم أزل أحس نحوه بالخوف والقلق العميق تجاه الأرض التى ولدت ونشأت فوق ترابها وكنت أفلحها بنفسى قبل خمسة عشر سنه أو أقل أو أكثر وتربطنى بها أقوى روابط الخير الوفير والصلات الحميمة ، وهى تموت اليوم أمام عيني ويدائ لا تقوى على الوصول إليها ، وتموت فى أعماق كل يوم صلاتى الحقيقية بها التى لم يبق منها بالنسبة لى وللكتيرون غيرى سوى مثل هذه الكلمات والتأوهات التى يجيد نطقها الممثلون على عتبه مسرح التراجيديا الحزنة ، هذا هو المشهد الذى يعيشه الملايين من أبناء اليمن وأصبحوا يدركونه عن كثب مع بعض الفوارق النسبية فى التقدير الذهنى للمقدمات والنتائج . ولقد تحول هذا الموقف من حالة الخوف والقلق بالنسبة لى إلى الأحساس والشعور بالمسئولية بعد أن وقعت فى يدى بعض الدراسات والبحاث التاريخية الجادة والتى استطعت ان اختزل من جلالها مجموعة من الحقائق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لحياة المجتمع اليمنى القديم والحديث وعلاقته برقعة الأرض الزراعيه بصفة خاصة وبمجملة حقائق التاريخ اليمنى والحضارة اليمنية بصفة عامة ، حيث لم تستطع هذه الابحاث والحقائق التاريخية ان تنقلنى من موقف الأحساس بالخوف والقلق إلى موقف الشعور بالمسئولية فحسب ، بل إنها قد زودتنى أيضا بأهم ما كنت أفترق إليه من الحقائق التاريخية والعلمية والتجريبية الخاصة بهذه المنطقة الزراعية من العالم ، وعززت فى نفسى الثقة العلمية بكل الحقائق السابقة ، وكل الفروض والاحتمالات التى كنت أفترضها منذ مدة طويلة كأسباب ونتائج لما كانت عليه الرقعة الزراعية فى اليمن فى الماضى البعيد وما أنتهت إليه فى الحاضر ، مع تصور بعض البدائل الأفضل للمستقبل وهو الأمر الذى آمل الكشف عنه فى هذا البحث .

وانطلاقا من التزام مبدئى من جانب الباحث بروح الحقيقة العلمية

وحياذ موقفها وبعدها عن كل المظنات فقد التزمت بأحدث المناهج العلمية والتاريخية في علم الأجناع المعاصر والمنبثقة أساسا من النظرية العلمية المعاصرة كإطار منهجى لمعالجة موضوع هذا البحث ، محددا إطار هذا القسم المكون من فصلين في البحث في مسأله الأرض والإنسان في المجتمع اليمنى القديم حيث يتضح المدلول العلمى لهذه العبارة في البحث في قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج في المجتمع اليمن القديم ، وستناول الأرض (قوى الإنتاج) في الفصل الأول ، والإنسان (علاقات الإنتاج) في الفصل الثانى .

ولئننى إذ أتقدم للقارئ والباحث اليمنى والعربى وغير العربى داخل اليمن وخارجها بهذه المحاولة لأدعى بأننى أقدم السهل الممتنع فى هذا الموضوع ، لأن أقصى ما يمكن أن تسمح به الظروف الذاتية والموضوعية لأى باحث فى هذا الشأن فى بلادنا لا يتجاوز فى الوقت الحاضر على الأقل مجرد وضع الإشارات الأولى على درب طريق شاق وحافل بالمكاره كهذا « طريق حل مشكلة الإنسان والأرض فى المجتمع اليمنى » ، وإذا قدر لى ووفقت فى وضع إشارة واحدة صحيحة من خلال هذا الجهد فإننى بذلك اكبرن قد حزت من النجاح أكثر مما رجوت وتمنيت ، وإذا لم فإن عزائى هو ما جاء فى الحديث القائل « من اجتهد وأخطأ فله أجر ومن أجتهد وأصاب فله أجران » .

الفصل الأول

قوى الإنتاج ، الأرض والإنسان ،

تمهيد :

ربما يكون أول ما ينتظره القارئ بمجرد أن يلمح العنوان السابق لهذا الفصل هو أن نقدم له تحليلاً نظرياً شاملاً عن كل الأسس والمبادئ والمفاهيم المتعلقة بموضوع فكرة قوى الإنتاج ، متى ظهر هذا المصطلح ومن المسئول عن ظهوره ومدى تأثيره إلى غير ذلك من كل ما يتعلق بهذا المفهوم العلمى الدائع الصيت والتأثير فى النظرية الاشتراكية العلمية التى أتت به بواسطة مؤسسها الأول كارل ماركس فى أوائل القرن العشرين ، والتى تشير باختصار إلى قوى الإنتاج باعتبارها مجموع الأدوات والموارد المادية الموجودة فى الطبيعة ، وما يقوم الإنسان بتطويره وصنعه منها ، مضافاً إليها الوجود الاجتماعى المباشر للأفراد ، وأن علاقات الإنتاج هى محمل التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة المنظمة لعلاقة الناس ببعضهم من جهة وهذه القوى الإنتاجية نفسها من جهة أخرى .

إلا أننا سوف نعنى أنفسنا من هذه المهمة فى موضوعنا هذا لاعتبارات كثيرة يأتى فى مقدمتها أن فى إمكان القارئ أن يرجع لتفاصيل هذا الموضوع فى عشرات ومئات الكتب العلمية التى تناولت هذا الأمر وقتلته بحثاً كما يقال ، والذى لا يوجد لدينا ما نضيفه إليها أو نعترض به عليها ، ولأن ذلك لو تم لكان من باب تحصيل حاصل ، عوضاً عن أن كون مثل هذا الأمر لا يشكل هدفاً مباشراً أو غير مباشر من أهداف هذا البحث ، كما أن ما نحرص عليه فى موضوعنا هذا هو أن نبحث عن الخصائص الواقعية والمادية لهذا المفهوم فى ماضى وحاضر المجتمع المبنى كهدف أساسى مباشر من أهداف هذا البحث .

وإذا كانت أهم المكونات الخمسة لقوى الإنتاج فى أى مجتمع زراعى

تقليدى كالمجتمع البنى القديم هى الأرض الزراعية والموارد الطبيعية المباشرة مضافا إليها الحكم البشرى فإننا سوف نركز على الأرض والإنسان باعتبارهما التجسيد الأساسى لقوى الإنتاج فى المجتمع البنى القديم وفى كل مجتمع تقليدى ذلك أنه لم تكن لتوجد الآلة اليدوية والحرفية إلا باعتبارها امتداداً وتعبيراً مباشراً عن الموارد الطبيعية المباشرة ومكملة لها من زراعة وتعيين ونحو ذلك. ولم تنفصل الآلة وتستقل بنفسها كقوة إنتاجية قائمة بذاتها إلا بعد الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر وحدث التطور الهائل فى تقدم العلم والتكنولوجيا الصناعية الحديثة .

أولاً - الأرض

ينقسم التركيب الجغرافى والمناخى لليمن بديها إلى ثلاثة أقسام أو أنماط وهى المناطق المرتفعة الباردة فى قمة الهضبة وحوافها ، والمعتدلة على سفوح وجوانب هذه الهضبة ، والحارة على أطرافها فى ساحل البحر الأحمر والبحر العربى جنوبا وغربا والصحراء الشرقية والشمالية ، وداخل هذا التوزيع الجغرافى والمناخى يمكن استخلاص خمس مناطق زراعية متباينة نسبيا :

١ - المناطق المرتفعة أو سطح الهضبة وهى تميل إلى البرودة والاعتدال طوال العام من حيث المناخ ، والانبساط النسبى من حيث السطح ، وقليلة الأمطار نسبياً ، وتدخلها بعض الوديان الصغيرة والينابيع الدائمة الجريان والآبار الجوفية التى تروى بعض المساحات الزراعية الصغيرة .

٢ - مناطق المدرجات الجبلية المرتفعة والتى تبدأ من مشارف وسفوح الهضبة على كل الاتجاهات تقريبا ، شرقا وغربا وجنوبا وشمالا ، وحتى حواف السهول الشرقية والغربية ، حيث يميل المناخ إلى الاعتدال المنعش طوال العام والأقل برودة من سطح الهضبة بصفة عامة ، وتهطل على هذه المنطقة الأمطار الغزيرة وتغطى سطحها الخضرة الزراعية والطبيعية فى أغلب فصول السنة ، ويميل سطحها إلى التضرس الشديد والسفوح الشديدة الانحدار أيضاً ، وتكثر فى هذه المنطقة الينابيع والعيون الصغيرة دائمة الجريان التى يعتمد عليها فى الشرب والرى الزراعى إلى حد ما .

٣ - الوديان العميقة وبعض المساحات والسفوح والوديان الزراعية

المائلة إلى الانبساط والأقل تضرسا والتي توجد متداخلة مع منطقة المدرجات وحواف السهول الشرقية والغربية وتتمتع بنفس المناخ وكية الأمطار وانتشار الخضرة إضافة إلى توفر المياه الجوفية والأنهار شبه الدائمة الجريان طوال العام، وهى من أخصب المناطق وأكثرها ازدحاماً بالسكان فى الوقت الحاضر.

٤ — منطقة السهول الشرقية التى تفصل ما بين الصحراء والهضبة فى شكل شريط سهلى على الهضبة تكون بفعل انحدار المياه والسيول القادمة من قمة وحواف الهضبة عبر آلاف السنين وحتى الآن ، ويسوده مناخ معتدل مائل إلى الحرارة نسبيا وتنخفض فيه الرطوبة إلى حد كبير ، وهو قليل الأمطار نسبيا ويعتمد على مجارى السيول القادمة من الهضبة بالدرجة الأولى إلى جانب المياه الجوفية الوفيرة .

٥ — منطقة الهول ، أو السهل الغربى الذى يفصل الهضبة عن البحر الأحمر (تهامه) وهو لا يتميز عن السيل الشرقى والجنوبى إلا فى كونه يتلقى كمية أعلى من نسبة الأمطار الموسمية ويسوده مناخ شبه استوائى حار مصحوب بالرطوبة النسبية والعالية أحيانا ، ويتشابه مع السهل الشرقى من حيث اعتماده الأساسى على السيول المنحدرة من قمة وحواف الهضبة من جهة والهضبة العالية للتربة من جهة أخرى .

ونظرة عاجلة متمعنة إلى الطريقة التى استصلح بها الإنسان كل هذه الأراضي الزراعية عبر التاريخ فى سفوح الجبال ومنحدراتها أو قيامه بعملية خلقها على هذه المنحدرات والسهول على الأصح ، وبناء ما تتطلبه من مرافق رى وطرقات وصيانة . . . الخ . تستطيع أن تقنعنا ومن أول وهلة أن هذه الرقعة الزراعية قد مالت حقيقة لأن تكون هبة الإنسان وصنعه وعطائه أكثر من كونها هبة الطبيعة وعطائها كما يفترض عادة ، وأن دوافع الإنسان البنى الاجتماعية والتاريخية والنفسية فى فرض حياته على هذه الأرض قد تجاوز مجرد الدوافع الاقتصادية والمعيشية وحدها . إلى تأكيد ذاته ووجوده الاعتبارى أيضاً ، الأمر الذى سيتضح من خلال تحليل هذه المناطق من الناحية التاريخية وكيف تعامل معها الإنسان منذ وقت مبكر وذلك على النحو التالى :

(١) المدرجات

لقد تعود البنيون منذ القدم بناء مزارعهم ومدرجاتهم المسطوية الجميلة والمعقدة غير محكومين في ذلك بمجرد البعد الاقتصادي المحصور في كمية وقيمة ما سيبدلونه من جهد في مقابل ما سيجنونه من المحصول وتوفير أسباب البقاء فحسب ، بل ومتأثرين في ذلك بأبعاد اجتماعية ونفسية وجمالية شديدة الوضوح ، فالإنسان البني ممن منذ القدم في الإصرار على إقامة المدرجات الزراعية في أشد المناطق الجبلية وعووة ، وإقامة الحواجز المرتفعة على المنحدرات الصخرية لتجميع التربة التي تأتي بها مياه الأمطار المنحدرة من أعلا وعوامل التعرية الطبيعية لكي يحصل على مسطبة زراعية قد لا تتجاوز عدة أمتار مربعة من التربة بعد عدة سنوات ، وكثيرا ما كان يرفض هذا الانتظار الطويل لفعل الطبيعة وحركتها البطيئة ليقوم بنفسه إضافة إلى إقامة الحواجز والجدران بعملية البحث عن التربة من خلال تنقيته وتفتيت الصخور المجاورة نفسها ، أو نقلها من أماكن بعيدة على كاهل حيواناته وماشيتة أو بقوته العضلية المجردة حينما تعجز الحيوانات التقليدية عن الوصول إلى كثير من الأماكن المتضرسة وشديدة الانحدار .

ونتيجة لطول مراس الفلاح البني في التعامل مع هذا التكوين الطبيعي والجغرافي للأرض نمت لديه خبرات نادرة في كيفية بناء الحواجز والجدران الحافظة للتربة في المدرجات المرتفعة والتي يتراوح إرتفاع جدران هذه المدرجات في الغالب ما بين مترين إلى ستة أمتار ، وتتراوح أمتداداتها الطولية ما بين خمسة عشر مترا إلى خمسين مترا فأكثر ، بينما لا يتجاوز عرض المساحة المسطحة من التربة فوق كل جدار أكثر من أربعة إلى خمسة عشر مترا مربعا في أحسن الأحوال ما عدا بعض الاستثناءات التي تسمح بمساحة أكثر من الأرض . وتوجد هذه المدرجات متلاصقة مع بعضها أو فوق بعضها على الأصح ، حيث يبدأ المدرج الأعلى من حيث تنهى المساحة العرضية للمدرج الأسفل مباشرة فيما يشبه تكوين درجات السلم تماما ، وهي غالباً ما تتخذ أشكال نصف دائرية أو منحنيات مائلة ومتعرجة ، وفقا لطبيعة

التكوين الإصلى لسطح الأرض المنحدرة ، ونادرا ماتكون فى شكل خطوط مستقيمة تتعارض والتكوين التلقائى لسطح الأرض .

و يتم تحديد المجارى الرئيسة للمياه المنحدرة بعناية كبيرة ، والى تتخذ بطبيعتها أشكال خطوط عرضية حادة عبر هذه المدرجات ، بحيث تستطيع هذه المدرجات أن تحصل على حاجتها من هذه المجارى المائية فقط بشكل مقنن وبالقدر الذى لايسمح بافساد المحصول أوإنحراف المجرى الرئيسى للمياه إلى داخل أراضي المدرجات ، حيث قد يؤدي هذا الإنحراف إلى نهيار الجدران والموانع الحجرية للتربة بسهولة وجرف التربة نفسها نهائيا ودفعه واحدة . وغالبا ما يتم التركيز فى مثل هذه المناطق على عملية الصرف أكثر من عملية الرى ، نظرا لأن هذه المدرجات المسطية الصغيرة غالبا ماتكتفى بكمية الأمطار التى تهبط إليها مباشرة ، بينما تشكل المجارى الطبيعية لتجميع المياه الزائدة تهديدا مباشرا وغير مباشر إذا ما انحرفت مساراتها المحددة أوزادت عن المنسوب الإعتيادى .

ونتيجة لطول مراس الإنسان النبنى فى التعاملى مع هذا التكوين الطبيعى والجغرافى لأراضى المرتفعات فقد نمت لديه خبرة طبيعية وعملية نادرة فى كيفية بناء هذه المدرجات ومرافق ربيها وصرفها بما يجعلها أكثر قدرة على المقاومة لعوامل التعرية الطبيعية المختلفة ، وتجعل من هذه الطبيعة نفسها لوحة فنية أكثر جمالا ومدعاة لغرور وكبرياء الإنسان نفسه الذى قام بصنعها عنوة واقتدارا ، وهنا قد تكن الحقيقة الجوهرية التى مؤداها أن الأرض الزراعية فى هذه المناطق لم تكن مجرد مورد لإقتصادى للعيش بقدر ما أنها كذلك أصبحت جزء لايتجزأ من شخصية الإنسان النبنى نفسه وتجسيدها ماديا ومعنويا لرغبته فى الإستمرار والبقاء منذ القدم وحتى اليوم ، فهو يرى فيها نفسه ووجوده بقدر ما يحصل منها على ضروراته الإقتصادية والمعيشية .

(ب) أراضي الوديان والسفوح الداخلية

تكون هذه المناطق الأقل تضررا من الوديان المنخفضة الضيقة وسفوح الجبال وبعض المساحات الداخلية فى قة الهضبة أو على مشارفها وجوانبها حيث

تتوفر كميات التربة من جهة وتتضخم مجارى المياه الأكثر تركيزا ، ونهطل الأمطار الأكثر غزارة نسبيا وتتوفر الغيول والعيون دائمة الجريان ، وحيث المناخ المنعش والمائل إلى الاعتدال طوال العام ، ففى أراضي هذه المناطق أبدى الفلاح البنى منذ زمن بعيد مهارة أكثر فى الاستفادة من هذه المساحات والسفوح العالية الخصبوبة ، فى إقامة المزارع الاقتصادية النموذجية التى أحتاجت إلى جهود جماعية غير عادية لإستصلاحها ، من حيث الجهد المضى لتثبيتها من الصخور المتداخلة عادة بعمق مع التربة من جهة والقيام بعملية تسويتها وتسطيحها من جهة ثانية ، ثم إقامة الموانع الصخرية العالية التى تحفظ التربة وتحميها من عملية الإنهيار وجرف السيول ، ويحقق فى الوقت نفسه تنظيم ريها الكافى من هذه السيول بدون مخاطر جرفها وتهديمها ، ثم إقامة السدود الكثيرة المتوسطة الحجم والكبيرة بغرض توفير رى شبه دائم من جهة وتقليل مخاطر السير العشوائى للمياه والتحكم فيها من جهة ثانية ، ثم إتاحة مخزون هائل من المياه الجوفية يتاح معه تدفق الينابيع والغيول طوال العام نتيجة احتجاز المياه على مساحات واسعة من الأراضي المرتفعة خلف جدران السدود .

وإذا كانت الطبيعه الجغرافيه المتضرسة لمناطق المرتفعات الجبلية أو مناطق المدرجات التى سبقت اليها الإشارة ، قد حدث بطبيعتها من طموح المزارع البنى فى الحصول على مساحات أوسع من الأرض ومجال أرحب لتحدى هذه الطبيعة والإحساس بالتفوق عليها ، فان هذه المناطق الأقل تضرسا فى الوديان العميقة وسفوح الجبال والمساحات الداخلية والمتداخلة مع تلك المرتفعات الجبلية قد أعطت هذا الإنسان الفرصة الذهبية الكافية لتحقيق كل طموحاته المادية والمعنويه بدون أدنى شك ، ذلك أنه بالرغم من أن ٩٩٪ على الأقل من مجمل الاراضى والسدود والمزارع الإقتصادية التى تم استصلاحها منذ أكثر من ٣٥٠٠ سنة على الأقل قد تهدمت تماما مرافق ريها ومواصلاتها من سدود وطرق ، إلا أنه مايزال فى مقدورك أن تشاهد بالعين المجردة بقايا وأنقاض هذه الأراضي الزراعية ومرافقها من سدود وطرق وغيرها بطريقة لا تختلف كثيرا عن مشاهدة آثار الحصون والمدن القديمة أيضا .

إن الكثير من هذه المزارع كان يمتد بعضها ليشمل مساحات من الأراضي تتجاوز مئات الأفدنه إن لم نقل آلاف الأفدنه ، وذلك من خلال

ملاحظة بقايا الجدران والحواجز الصخرية التي يمتد طول بعضها إلى عدة كيلو مترات لتحتضن مناطق جغرافية بأكملها ، والتي تم بناؤها بطريقة شبه أسطورية فيما يشبه بناء الاهرامات من حيث حجم الاحجار ومتانته بناثيا وبأرتفاعات يصل بعضها إلى عشرين مترا ، فنمط هذه الجدران منتشر في معظم المناطق المشار إليها آنفا والتي كانت تحتضن ورائها المساحات الزراعية الهائلة قبل أن تتحول اليوم إلى أحرار أو قطع من الارض المفتتة عديمة الرى وردينة المحصول ، حيث ما يزال يضرب بتلك الجدران والحواجز المثل بين الفلاحين والمزارعين حتى اليوم في الاتقان والمتانة وفي التفرقة بين أنواع الحواجز والجدران الزراعية الجيدة والرديئة في البناء بصفه عامة ، إذ أنه من السهل عليك أن تسمع أحد الفلاحين وهو يفخر بأنه قد أقام أرضه على جدار « أسعدى » أو جدار « جاهلى » أو جدار « قرمطى » وهى التسميات التي صاروا يطلقونها على آثار تلك الجدران والحواجز المنيعه هنا وهناك من بقايا السدود والطرق والمزارع الكبيرة .

والجدار « الاسعدى » هو نسبة إلى « سعد الكامل » وهو آخر الملوك الحميريين الاقوياء الذى أشتهر شهرة عظيمة فى إستصلاح الاراضى الزراعية وإقامة السدود لريها الدائم والموسمى ، وكان يشرف على بناء جدرانها ويمارس البناء بنفسه طوال حياته وطبع به عصره وتاريخه حتى اليوم (١) . كما أن الجدار الجاهلى يحمل نفس الدلالة بصورة أكثر شمولا وعمومه على كل ما هو قديم وسابق على ظهور الاسلام من مباني وحواجز وسدود زراعية وغير ذلك من معالم التاريخ المختلفة مما صار يعرف بتاريخ العصر الجاهلى فى الجزيرة العربية بصفة عامه إشارة إلى حياة ما قبل الاسلام ، وأما الجدار أو « الجدر القرمطى » والذى ينتشر مفهومه بين أبناء المناطق الشمالية الغربية من بلاد إلهنوم وشهارة وحجه وغيرها ، فهو نسبة إلى عهد الزعيم اليمنى القرمطى على ابن الفضل الذى وحد اليمن فى مطلع القرن السابع الهجرى وأستقل بها عن مراكز الخلافة والأئمة الموهومين وطبق فيها الكثير من الاصلاحات الجذرية فى العلاقات الاجتماعية والأقتصادية وإستصلاح الأراضى على أسس شبه اشتراكية وجماعية واضحة على غرار ما فعله القرامطة فى

(١) راجع صفة جزيرة العرب للهمدانى .

البحرين وغيرها من مناطق الخلافة الاسلامية التي تواجدوا فيها وأقاموا عليها نظما سياسية مستقلة^(١) .

وهكذا نستطيع القول بأن الشهرة التي عرفت بها اليمن في بناء السدود وشكلت هذه الشهرة النمط الأساسى لطابع الحضارة اليمنية برمتها حتى اليوم هى من باب أولى دالة علميه وموضوعيه لا تحتل الشك على شهرة الإنسان اليمنى وإمعانه فى بناء المزارع الاقتصادية فى المقام الأول والتي لم يكن بناؤها أقل عناء ومشقة وتقنيه من بناء تلك السدود التي تروىها بصفه دائمة ، فأستصلاح الأرض هو المتغير الأساسى الذى ينجم عنه بناء السدود كمتغير ثانوى ، فالمدرجات والمزارع الواسعة التي تم بناؤها فى هذه المناطق هى المتغير الأساسى المستقل الذى أستلزم بناء السدود والطرق كمتغيرات ثانوية تابعة ، لريها وتأمينها من الجرف وعوامل التعرية ، وعليه ففقس بقية المناطق الأخرى . كما أن بناء السدود المنتشرة فى أنحاء اليمن وبصورة شمولية لا نكاد نعر لها على قرين فى كل الحضارات القديمة أو حتى فى البيئات المشابهة كبلاد اليونان والهند والحيشة وغيرها لا تحمل دالة كونها مجرد مرافق أريد من خلالها الحصول على رى دائم بدلا من الموسمى للأرض الزراعية فحسب ، ولكنها ذات دلالة أكثر بعداً على إمعان الإنسان اليمنى القديم فى التدخل فى شئون بيئته وفرض نفسه وكبريائه عليها بصورة شمولية حتى صارت علامة مميزة له ولتاريخه وحضارته حتى اليوم ، وذلك على نحو ما سنتناوله بالتحليل والبحث فى الفصول القادمة من هذه الدراسة .

(ج) أراضي السهول الشرقية

تقع مناطق السهول الشرقية فى الحافة المحاذية للمرتفعات الجبلية الشرقية ، والممتدة آلاف الكيلو مترات إبتداء من بوادى حضر موت فى الجنوب الشرقى مروراً بوادى بيجان ووادى مارب وأنهاء بوادى الخارد فى منطقة الجرف وحتى سهول لواء الشام الشمالية الشرقية من محافظة صعدة والخلاف السليمانى

(١) راجع بصفة عامة بندلى جوزى : تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام ، دارالروائع بيروت ، وبالذات الفصل الخامس ص ١٥٩ وما بعدها .

فى أقصى الشمال ، والتي بالرغم من الحصوبه العاليه لآربتها التى كونتها مجارى مياه السيول المنحدره من سطح وحواف الهضبة عبر آلاف السنين ، إلا أنها لاتتلقى كمية من الأمطار المباشرة يمكن الاعتماد عليها فى الزراعة مباشرة أبدا ولكنها تستقبل المياه المنحدره من الهضبة حيث الأمطار الغزيرة نسبيا فى شكل سيول موسمية عارمه فوق سطح الأرض والتي تفاجئهم غالباً فى وضع النهار ، وتستمر لعدة أيام فقط فى السنة شاقه طريقها بسرعة فى قلب الصحراء الرملية التى لاتبعد عنها بأكثر من عدة أعشار من الكيلو مترات ، إضافة إلى مياه جوفية دائمة وغزيرة تحت سطحها بأعماق بعيدة نسبيا لا أكثر ، ومن النادر أن تحصل على مجارى مياه وغبول سطحيه دائمه الجريان على غرار ما يمكن أن نشاهده فى المرتفعات الوسطى والوديان العميقة والصغيرة الداخلية من الهضبة .

إذن فالبيئة الجغرافية فى هذه المنطقة التى أقيمت عليها أبها حضارات التاريخ البنى تبدو هكذا : شريط سهلى من الأرض عاليه الحصوبه يفصل ما بين سفوح الهضبة الجبلية وبحار الصحراء الرملية شمالا وشرقا بعرض يتراوح ما بين ٣٠ إلى ٦٠ كيلومترا تقريبا وبطول يتجاوز آلاف الكيلومترات كما سبقت الاشارة ، يتداخل مع الهضبة بأعماق متفاوتة من مكان لآخر ، ولاتهطل عليه الأمطار إلا قليلا ويسوده مناخ معتدل مائل إلى الحرارة نسبيا طوال العام وذى رطوبة منخفضة جداً وتخرقة مجارى السيول العارمة والمؤقتة بطريقة فوضوعية وشديدة الاضطراب وتميل سطح تربته إلى الامبساط النسبى ، وتتخللها الصخور التى تجلبها السيول من الهضبة المجاورة والمختلطة بالطين المكثف من التربة العاليه الحصبة فى نفس الوقت ، وتندر فيه مياه العيون السطحية دائمة الجريان ، وتتوفر فيه المياه الجوفيه الغزيرة بأعماق متفاوتة غير مستقرة وفقا لمواسم الامطار .

وبهذا الشكل تبدو البيئة فى هذه المنطقة ملوحة بخيرات العيش وأسباب البقا المغريه بلاحدود ، خصوصا فيما يتعلق بالمناخ الممتاز ونوع التربة العاليه الحصوبه ، إلا أنها لاتكاد تعطى شيئا بصفة تلقائية ، بل وعلى العكس من ذلك فإن السيول التى تداهمها من وقت لآخر من كل عام فى وضع الشمس الحارة والقادمة من أعماق وقه الهضاب الجبلية على بعد مئات الكيلومترات

غالباً ما تسبب في أضرار كبيرة برعاه الابل والماعز والبدو الرحل الذين ما يزالون يعيشون في هذه المنطقة في الوقت الحاضر ويتنقلون فيها من مكان لآخر بنحيامهم ومواشيهم ، الأمر الذي اضطهم إلى النزوح إلى المناطق الجبلية المجاورة للإقامة لاطول مدة ممكنة من العام ولايعاودوا النزول إلى هذا السهل إلا بغرض الرعى المؤقت والانتقال من منطقة لأخرى .

إذن فبناء السدود الضخمة في هذه المنطقة والتي يأتي في مقدمتها سد مارب العظيم لم يكن الغرض منه مجرد حجز المياه المتدفقة للحصول على رى منظم وشبه دائم بدلا من الرى الموسمى لاراضى يفترض أنها صالحة أصلا للزراعة وغير محفوفة بالمخاطر ، بقدر ما أن بناء هذه السدود كان يشكل مهمة متعددة الأغراض بدون شك في نطاق عملية إقتحام شاملة ومتكاملة قام بها الإنسان العيني القديم في هذه المنطقة ، لاجرد البحث عن ضرورات تأمين العيش والبقاء عليها فحسب بل وإقامة حياة حضرية بالغه التعقيد والارتقاء المدني والحضرى الذى عرف به تاريخ اليمن القديم أنطلاقا من هذه المنطقة . ويمكن تصور أطراف عملية الإقتحام المتكاملة هذه حسب الاولويات على النحو التالى :

١ - تنظيم المجارى الرئيسية للسيول وإحكام توجيهها بدقة نحو الصحراء ، وبما يضمن عدم إنحرافها وممارسة سيرها العشوائى المضطرب الذى يهدد الأرض بالجرف والتدمير المستمر ، وتلك هى المهمة الأولى في العملية .

٢ - إستصلاح الأرض نفسها بتسوية سطحها شديد التآكل والاضطراب ، بفعل الاضطراب العشوائى لممرات السيول من وقت لآخر ، وتنقيتها من الأحراش والصخور المتداخله بها ، وإقامة الحواجز الضخمة التى تحتفظ لها بكمية المياه اللازمة للرى وتحميها من الانهيار ، وتنظيم قنوات ريها بدقة من السيول الموسمية بما يضمن عدم تعرضها لمخاطر الجرف والانهيار ويوفر إحتياجها من المياه الكافية لزراعتها ولو مرة واحدة في السنة على الأقل ، لأن الأرض في هذه المنطقة تستطيع أن تعطى أكثر من محصول في السنة إذا غمرت بالمياه مرة واحدة فقط ، وتلك هى المهمة الأساسية الثانية .

٣ - إقامة السدود الضخمة والكثيره فى المناطق الجبلية المجاورة للسبل
لاعتراض حركة المياه وأحتجاز أكبر كمية منها وفرمله سيرها العشوائى
المتعجرف وتطويعة وأستأناسة ، وتلك هى المهمة الثالثة والأخيرة ، حيث
أتاح أنجاز هذه المهمة التحكم فى آخر معقل شرس ومتمرد فى طبيعة المنطقة
من جهة وأنزاع أقصى ما فى مكنونها من الخيرات من جهة أخرى ، لأن
إقامة هذه السدود قد نجم عنه ثلاث نتائج بالغة الحيوية هى :

(أ) التحكم فى سير المياه وتقليل مخاطر تهديدها للأرض ومن عليها إلى
حد كبير .

(ب) توفير المياه وحجزها فى المضائق الجبلية خلف حواجز السدود
وأستغلالها فى الحصول على رى دائم ومنظم من خلال شبكات رى بالغة
الدقة والتنظيم بدلا من الرى الموسمى المضطرب .

(ج) إن حجز المياه على مساحات واسعة بين المضائق الجبلية بفعل هذه
السدود قد أدى أيضا إلى إستمرار تدفق بعض العيون الحارية فوق سطح
الأرض وأرتفاع منسوب المياه الجوفية وقربها جداً من سطح الأرض ،
الأمر الذى أتاح مصادر أخرى غير مباشرة وسهلة للرى فى المناطق التى قد
لا تصل إليها مياه السدود مباشرة .

وإذا كان التاريخ قد أستطاع أن يتذكر ويسجل قصة رحيل كل تلك
الأقوام من سباء وغيرها بعد أن هيار سدودهم ومرافق حياتهم الأقتصادية والتى
يأتى فى مقدمتها سد مأرب فى هذه المنطقة إلى خارج اليمن فى شمال الجزيرة
والشام والعراق وأقاموا ممالك لهم هناك من غساسنة ومناذرة وغيرهم ، فإن
أحدا لم يتذكر قط أو يسجل حتى اليوم قصة من أنقطعت بهم السبل منهم
وعجزوا عن الرحيل ، والذين منهم من أبتلغته الأعماق ومنهم من لا ذا إلى
الجال والهضاب القاحلة المجاورة للسد ودلتا الوادى لكى يعتصموا بها من
الموت ، فالبقية من هؤلاء الناس أنفسهم ممن يسكنون اليوم جبال مراد
والجوبة وحريب وغيرها ما يزال فى الأماكن قرأة التاريخ بكل تفاصيله ليس
فى اثارهم التى من السهل مشاهدتها بالعين المجردة فقط بل وفى ملامح وجوههم
القانية وقاماتهم الفارعة وسلوكهم الاجتماعى المتميز والمستمد من أعماق التاريخ

السحيق التي ما عادوا يعون أو يتذكرون منها سوى ما يحدثونك به ببساطة وبحضور نفسى وتاريخى عجيب من أنهم ليسوا أصلا من سكان هذه الجبال الصخرية القاحلة التي ظلوا زمننا طويلا وحتى عهد قريب ينقبون عن أملاحها الصخرية ويحتطبون أشجارها شبه الصحراوية ويحملون كل ذلك على ظهور أبلهم إلى المدن والقرى البعيدة المختلفة ليحصلوا مقابلها على ميسور عيشهم الضرورى من الطعام عيننا ، ولكنهم يقولون لك أيضا أنهم لجأوا إلى هذه الجبال بعد أنهار السد ، وما عاد في مقدورهم أن يعيشوا مرة أخرى على تلك الأرض التي غدرت بهم وصاروا ينظرون إليها نظرة يملأها الشك والتشاؤم ، إلى حد أن بعضهم لا يرفض كل فكرة لا عادة بناء السد وإحياء الأرض بالزراعة فحسب بل ويقاوم ذلك تحت شعار « السد لا يسد » مكتفين بحق التمسك بملكيتها الجماعية وأستخدامها كمجرد مراعى للابل والماعز .

ولقد لقيت كل المحاولات الرسمية الحديثة من قبل الدولة لدراسة المنطقة بما فيها السد نفسه كتمهيد لاعادة الحياة فيها وزراعتها مشاكل غير محدوده مباشرة وغير مباشرة لمقاومة هذه المحاولات وتعطيلها ، لا كمجرد تعبير عن شعار الشك والتشاؤم السابق « السد لا يسد » فحسب بل وعن الخوف والقلق العميق الذى بدأ يساورهم من أن تؤدى مثل هذه المحاولات إلى أفئقدهم لملكيتهم الجماعية وشبه الجماعية لهذه الأراضى فى المستقبل القريب نتيجة لهذه المحاولات والتي يستفيدون بها كمساحات وأحراش شبه غابيه شاع لرعى الابل والماعز لا أكثر .

إننا لانطلق مثل هذه المقولات جزافا ، لأن المرء يستطيع أن يرى بأم عينيه كما رأيت وتمعت عن كذب كيف أستحالت هذه المنطقة (دلنا وادى مأرب) التي أقيمت فيها عاصمة ومرافق أشهر دولة حضارية مزدهرة فى تاريخ اليمن القديم إلى مراعى شحيحه شبه صحراوية للابل والماعز ، وكثيرا ما تتشابه فيها قيمة قطرات الماء بقطرات الدم ، وكيف أن البقية الباقية من أهلها الذين تفرقت بهم السبل والامصار فى غابر الزمن ممن لم يبارحوا الأرض قد تحولوا من عده ملايين من الحضر إلى عده الاف من البدو

الرحل^(١) الذين أمحت من أذهانهم بمرور آلاف السنين كل فكرة عن زراعة هذه الأرض واخضرارها ، وعجزوا حتى وقت قريب (عام الثورة ١٩٦٢) عن تصور أن هذه الأرض ذات قيمة أو أنها قادرة على أنبات زرع أخضر ، إن لم يكن ما يزال معظمهم كذلك حتى الآن بصورة مباشرة ، غير مباشرة .

ناهيك عن قدرتهم على استيعاب الحقيقة التي يمكن رؤيتها رؤيا العين والتي تؤكد أن النخيل في هذه المنطقة يثمر خلال أفني عشر شهرا من أنباته ، وأن العنب يجنى مرتين في عقلة واحدة ، وأن البرتقال يثمر طوال العام ، وأن متوسط حجم ووزن حبة البطاطس والبصل تصل في كثير من الأحيان إلى كيلوجرام فأكثر ، وذلك إذا ما استطاع المرء أن يرفع ينبوعا من المياه المتدفقة بلا توقف من عمق خمسة عشر إلى خمسة وعشرين متراً تحت سطح الأرض بواسطة رافعات كهربائية عادية في معظم أرجاء المنطقة ، أو حينما يعترض مجرى السيول الموسمية ليغمر بها قطعة أرض بالمياه مرة واحدة في السنة ويحصل على نفس النتيجة ، وهو الأمر الذي بدأ يثنبه إليه بعض المخطوظين من سكان المنطقة المقيمين في المدن بحكم وظائفهم الحكومية أو أعمالهم التجارية ، وقدموا لنا بذلك التجسيد المادى لهذه الحقيقة التي ما كان في مقدور أحد تصديقها مهما بلغ الإستسلام للعواطف الوطنية والتاريخية التي تملأ أعماق كل يمني نحو هذه المنطقة بالذات والابتعاد عن موقف الحياد العلمى في الدراسة والبحث لو لم أكن بنفسى قد لاحظت هذه الحقيقة بالعين المجردة .

(د) السهول الغربية (تهامة)

لا تتميز سهول تهامة الغربية التي تفصل ما بين مرتفعات الهضبة والبحر الأحمر عن السهول الشرقية في شيء ، من حيث تكوين الشكل الجغرافى والامتداد الطولى والعرضى ودرجة خصوبة التربة التي قد يتفوق بها السهل الشرقى نسبياً على هذا السهل الغربى ، أما الميزة الأساسية التي يتميز بها هذا

(١) يشير الإحصاء السكانى الأخير الذى أجري في فبراير ١٩٧٥ إلى أن مجمل سكان محافظة مأرب لا يتجاوز الأربعين ألف نسمة راجع كتاب الإحصاء الصادر عن الجهاز المصرى للتخطيط لعام ١٩٧٦ ص ٤٢ .

السهل الغربى عن السهل الشرقى فهى فى كونه يتلقى نسبة عالية نسبياً من الأمطار الموسمية المباشرة تتيح زراعة بعض المحاصيل بالاعتماد على هذه الأمطار مباشرة ، إضافة إلى مجارى السهول الموسمية الأكثر غزارة وانتظاماً إلى حد ما كما أن المرتفعات المجاورة فى هذا السهل من الهضبة تتميز بالخصوبة العالية والخصرة شبه الدائمة للمدرجات الزراعية التى تغطيها ، رغم تضررها الشديد وذلك بحكم أن هذه المرتفعات الجنوبية والغربية تشكل الحواجز الأولى التى تصطدم بها الرياح الموسمية القادمة من الجنوب الغربى من سطح البحر الأحمر والمحيط الهندى والحملة ببخار الماء بعد عبورها لسهل تهامة الضيق فى الغرب وحضرموت فى الجنوب ، وذلك على خلاف المرتفعات المجاورة للسهل الشرقى التى تميل إلى الجفاف وسيادة المناخ شبه القارى ، وذلك هو الأمر الذى أتاح استمرار العمل الزراعى ووجود علاقات إنتاجية شبه مستقرة فى هذه المنطقة الغربية من سهل تهامة مهما بلغت هذه العلاقات وهذا الإنتاج من حالات التدنى والضعف ، وفى مقابل هذه الميزة الإيجابية للسهول الغربية تسيطر عليها ميزة سلبية تحد من الميزة السابقة إلى حد كبير بالنسبة للسهول الشرقية ، وهى الارتفاع الشديد فى درجة الحرارة الذى يدخل فى تركيبه ضمن المناطق الاستوائية والمصحوب بنسبة رطوبة عالية نسبياً وانتشار بعض الأمراض والأوبئة المتوطنة التى تترك آثارها الشديدة والوضوح فى حياة سكان هذه المنطقة ونشاطهم اليومى حتى اليوم بحكم ظروف الحياة التقليدية التى يعيشونها تحت رحمة الطبيعة مباشرة وسيطرة طبقة إقطاعية مستغلة من الملاكين العقاريين الكبار ، الأمر الذى لا وجود له على وجه التقريب فى السهول الشرقية التى تتميز بالمناخ المعتدل قليل الرطوبة وخالى من الأمراض المتوطنة تماماً إضافة إلى درجة أعلى فى خصوبة التربة وجودتها ، إضافة إلى التدنى الشديد فى شيوع علاقات الملكية الإقطاعية المستغلة فى الوقت الحاضر على الأقل (١) .

(١) راجع توضيح أكثر لهذه النقطة فى كتابنا : التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، مركز الدراسات اليمنية صنعاء ١٩٨٠ ، ص ١٤٠ ، إنظر من الصفحة الهامش .

ولذلك فإن قوى الإنتاج الزراعى المتمثلة فى مصادر الطبيعة وفعل الإنسان المباشر تتميز إلى حد ما فى هذه المنطقة الغربية من سهل تهامة بالنسبة لبقية المناطق الأخرى بميل الإنسان فيها إلى التكامل السلبى مع البيئة الطبيعية والاجتماعية من حوله والتى تفيض بكثير من الخيرات المباشرة التى لا تتطلب إلا القليل من الجهد ، الأمر الذى يحد من تنامى دوافع الفعل والبحث المركز عن أسباب البقاء وتطويرها فى الطبيعة من جهة والميل إلى الامترخاء النفسى إلى حد ما من جهة أخرى ، إضافة إلى ما تضعه الطبيعة نفسها من معوقات الحرارة المرتفعة ، وتفشى الأمراض الوبائية والمتوطنة وسيادة علاقات طبقية إقطاعية شديدة الاستغلال والقمهر ، الأمر الذى جعل من سكان هذه المنطقة يعيشون حياة بائسة أكثر من أى منطقة أخرى ، رغم كل ما تفيض به من خيرات كثيرة لا تحتاج إلا القليل من الجهد والكلفة لكى تصبح فى متناول الإنسان وتطوير حياته وتلبية متطلباته .

ثانيا : الانسان

أشكال التفاعل بين الإنسان والأرض الزراعية فى المجتمعات التقليدية

إن علاقة الإنسان بالأرض التى يزرعها منذ فجر التاريخ وتكامله معها هى حقيقة تكاد تكون شبه مطلقة ، فالزراعة بالنسبة للمجتمعات التقليدية — كما يقول أحد الباحثين — ليست علاقة لإنتاج اقتصادى فحسب ولكنها طراز معيشة اجتماعية أيضاً ، وإذا كانت علاقة الإنسان الاقتصادية والإنتاجية بالأرض هى علاقة مادية وتاريخية مرتبطة بأسباب البقاء وغير قابلة للتجزئة إلا أن طراز المعيشة والعلاقات الاجتماعية التى تعكسها طبيعة الممارسة لتلك العلاقة الاقتصادية والإنتاجية تنوع تنوعاً كبيراً ، وفقاً لطبيعة تنوع التركيب الجغرافى والمناخى للأرض من جهة (جبلية — نهريّة — صحراوية صالحة للزراعة — غير صالحة . . الخ) وطبيعة التطور والمراحل التاريخية التى يمر بها المجتمع من جهة أخرى ، والتى تتأثر بما قبلها وتأتى وقائع التطور إمتداداً وانعكاساً مباشراً لها إلى هذا الحد أو ذاك ، خصوصاً فى المجتمعات التقليدية القديمة ما قبل الصناعة الآلية ، حيث يميل نمط المعيشة إلى التكامل (م ٣ - المدخل الاجتماعى)

السلبى مع الأرض الزراعية فى المناطق شديدة الغناء فى مواردها الطبيعية والزراعية وشديدة الفقر فى المناطق الصحراوية والقارية على حد سواء ، حيث تؤدى الوفرة غير العادية لمصادر العيش فى المناطق الأولى إلى التدنى الشديد لوجود دوافع البحث عن أسباب البقاء والعمل على تطويرها .

كما تؤدى الندرة الغير عادية لهذه المصادر فى الثانية إلى الحيلولة دون إحداث تطوّر حاسم فى تأكيد أسباب البقاء وتطورها المطرد أيضاً ، رغم تتوفر دوافع البحث لدى الإنسان وحدتها بحكم الضرورة فى هذه المناطق ، بينما استطاعت البيئات الوسطية الأقل غنا والأقل فقراً أن تقدم نماذج واضحة للتكامل الإيجابى فى طراز معيشة الانسان واهتماماته وطرز حضارته أيضاً حيث تتوفر منذ زمن مبكر حالة من التوازن والتلازم المطرد بين توافر دوافع البحث القوية عن أسباب البقاء من جهة واستجابة البيئة الطبيعية لذلك أكثر فأكثر من جهة أخرى .

وتقدم لنا بلاد اليمن واليونان قديماً ، ومعظم الأقطار الأوربية واليابان حديثاً أوضح الأمثلة الدالة على هذه الحقيقة .

فالبيئة الطبيعية والجغرافية فى اليمن بصفة عامة لا تكاد تعطى شيئاً من موارد الحياة الاقتصادية وضرورات البقاء ما لم يبذل فيها جهداً إنسانياً مباشراً يتجاوز فى الغالب حدود ما تعطيه هذه الطبيعة ، التى مالت فيها الرقعة الزراعية إلى أن تكون من صنع الانسان لا من صنع هذه الطبيعة ، وأنه بمقدار ما يمن الانسان فى تدخله وفاعليته المادية فى هذه البيئة كلما استطاع أن يحصل منها على ما يوازى فاعليته وأكثر ، دون أن تتوقف إمكانياتها عند حد معين ، وبنفس المقياس الذى لا تتوقف فيه قدرات الانسان وإمكانياته المادية والذهنية عند حد معين فى التدخل فى شئون هذه الطبيعة واستثمارها لأجله فيما يشبه عملية تناسب طردى صاعد فى اتجاه نقطة غير محددة ، والعكس بالعكس صحيح فهى لا تكاد تعطى شيئاً ما لم يبذل فيها مثل هذا الجهد المضنى ، ولا توسط بين طرفى هذه المعادلة الثابتة فى اليمن . وذلك خلافاً لما يحدث فى أراضي الوديان النهرية ومناطق الغابات الاستوائية حيث يستطيع الانسان أن يحصل على احتياجاته الضرورية لبقائه بلا أى جهد يذكر ، أو بأقل

جهد عضلى وذهنى ممكن لا يتجاوز فى كثير من الأحيان مجرد النقاط الثمار أو إصطياد الحيوانات البحرية والبرية وشبه البرية ، أو مجرد رمى البذور على الأرض ليحصل بعد وقت محدد على ما يحتاجه من المحصول من الطعام ، ولا يكرر هذه العملية لأى سبب من الأسباب إلا حينما تدعوه حاجته الاقتصادية والبيولوجية البحتة لذلك وبما لا يتجاوز أشباع تلك الحاجات فى الغالب الأعم . وإذا ما حدث وأن أقيمت فى مثل هذه البيئات الوفيرة الخير بلا عنا نظماً إجتماعية مركزية قوية فإنها غالباً ما تتميز بالاغتراب عن الواقع إلى ما وراء الطبيعة من أفكار ومعتقدات خرافية وفلسفات إسطورية مغرقة من جهة ، وشديدة الظلم والقهر الطبقي والاجتماعى إلى حد العبث الامعقول من قبل الحاكمين ضد المحكومين من جهة أخرى ، وعلى خلاف ذلك نجد الأنظمة والحضارات التى أقيمت قديماً فى مناطق أقل جودة وأميل إلى الندرة النسبية فى مواردها الاقتصادية هى أميل إلى العقلانية والتحرر الذهنى دائماً . والمقارنة البسيطة التى يمكن عقدها عند مقارنة المضامين الاقتصادية والذهنية والاجتماعية للحضارة الهندية والمصرية من جهة ، واليونانية والينية القديمة من جهة أخرى كنماذج يستطيع أن يتلمس هذه الحقيقة بسهولة حتى يومنا هذا .

فلتأ وادى النيل تستطيع أن تقدم الكثير والضرورى لأهلها من أجل البقاء بانتظام لا يحتمل الشك مهما تضاعف جهد الإنسان المباشر فى أرضها حتى ولو وصل إلى حد العدم ، إنها على الأقل سوف لن تنهار فجأة وتصبح خضرتها وماؤها فى حكم العدم كما حدث بالنسبة لدلتا وادى مأرب بعد إنهار السد لأن دلتا مصر - كما تقول الحكمة التاريخية - هى هبة النيل ، والنيل هبة للطبيعة وصنعها ، أما دلتا وادى مأرب بسدها وجنيها فإنها لم تكن لاهبة الطبيعة ولا من صنعها بل كانت عطاء الإنسان الينى وصنعه هو فى المقام الأول ، وتلازم وجود خضرتها وماؤها وعطاؤها الكثير بوجود هذا الإنسان نفسه واستمرار فاعليته المتزايدة فيها فى شكل تناسب طردى صاعد لاحتد له .

والعكس بالعكس صحيح فإنه بمجرد أن بدأ هذا الإنسان العد التنازلى الهابط من خلال إهمال أرض هذه الجنة التى صنعها لنفسه بنفسه والإقلال من فاعليته الذهنية والعملية فيها لأسباب كثيرة لا مجال للحديث عنها هنا ، حتى

بدأت هي بدورها تمارس نفس العد التنازلى الهابط ؛ حتى وصل الطرفان إلى مادون درجة الصفر من العدم منذ أكثر من ألف عام وحتى الوقت الحاضر، ولا توسط في هذه المعادلة الثابتة التي تحكم علاقة الإنسان اليمنى بمجموع بيئته ورقعته الزراعية بصفة عامة كما سبقت الإشارة ، سواء في مثل هذه المنطقة الشرقية من اليمن أو غيرها من المناطق الأخرى في السهول الشرقية والغربية والوديان العميقة والسفوح الداخلية لمحدرات الهضبة وسطحها ، إذا ما استثنينا مناطق المدرجات الجبلية المتضرسة التي بالرغم من توفر هطول الأمطار فيها بصفة شبه منتظمة وبكميات متوفرة مما يعطى بعض الضمانات لدوام الحضرة والماء إلا إن إستزراع الأرض من خلال بناء المدرجات يتطلب جهوداً غير عادية ، وتظل مخاطر الإنهيار والجرف بالنسبة لهذه المدرجات شديدة الوضوح والأثر إضافة إلى فترات الجفاف من وقت لآخر .

وعلى ذلك فإن الحقيقة الجوهرية التي يمكن الخروج بها في هذه النقطة هي أن علاقة الإنسان اليمنى برقعة أرضه الزراعية قد تجاوزت عبر التاريخ مجرد المنفعة الإقتصادية اللازمة للبقاء ومالت هذه العلاقة إلى أن تشكل المدخل والبعد الأساسى لتكوين شخصية هذا الإنسان ونمط تفكيره وعلاقاتة الاجتماعية والسياسية والأيدولوجية والحضارية بصفة عامة .

إن الخيط الرفيع والواهى المائل إلى التذبذب الذى يفصل بين موارد الأرض وجهد الإنسان لا يتيح للمرء أن يطالع في صفحات ماضى وحاضر إنسان هذه المنطقة سوى طبيعة متمردة ترفض الإنسان تماماً لتبقى بدونها أحياناً ، أو طبيعة خاضعة سخية العطاء بعد أن يكون قد فرض نفسه عليها فرضاً ، وصنعها لنفسه صنعا من الألف إلى الياء ، وكما لو كان قد صنع الحياة بدونها أو رغمها عنها ولا توسط في ذلك ، الأمر الذى أفرز طرازاً من العلاقات الإقتصادية والاجتماعية والسياسية والمضامين الفكرية المتميزة جداً في تاريخ هذه المنطقة وحضارتها ، خصوصاً فيما يتعلق بمراحل الإزدهار الحضارى وفترات إمعان الإنسان اليمنى في فرض نفسه على الطبيعة وتحويلها لأجله .

فلقد كان طراز هذه العلاقات الاجتماعية والمفاهيم الفكرية المتميزة هو الافراز المباشر لنوع التعامل المتميز مع واقع هذه المنطقة الإقتصادية والجغرافى

والاستراتيجى أيضاً. وستتضح كل دلالات هذه العلاقة بين الإنسان والأرض الزراعية فى المجتمع البنى من خلال تحليل الدلالات الموضوعية لطبيعة التكوين الجغرافى والمناخى والإقتصادى والاستراتيجى للبنى أرضاً ومجتمعاً من خلال الفقرات الآتية :

الدلالات الاقتصادية والاجتماعية لقوى الإنتاج فى المجتمع البنى القديم

تقول إحدى الأساطير البنية المغرقة فى القدم على لسان وهب بن منبه الحميرى أن يعرب بن قحطان بن هود وجد رائحة المسك بأرض اليمن فقال له هود : أنت ميمون يا يعرب . أنت أيمن ، ولدى : مر فإذا سكن عنك ما تجده فأترل بأرض اليمن ، لا تمر فإنها لك خير وطن . (١) وتقول الآية الكريمة : لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم وأشكروا له بلدة طيبة ورب غفور .

فهل كانت مثل هذه البدايات التاريخية التى لم نعد نقوى على قرائتها أو تذكرها إلا من خلال مثل هذه الملامح الأسطورية والغيبية الميتافيزيقية هى بداية رحلة الإنسان البنى وقصته مع هذه الرقعة الجغرافية من سطح الكرة الأرضية؟ الحقيقة أنه بالرغم من اشتياقنا العميق إلى الكشف عن حقيقة مثل هذه البدايات التاريخية ووصل ما أنقطع من تاريخ قصتنا على هذه الأرض ، إلا أننا وبحكم طبيعة موضوعنا هذا سوف يعيننا التركيز على البحث فى الكيفيات أكثر من البحث فى الوقائع وجزئيات البدايات والنهايات ، والتى تستحق بحث وأبحاث قائمة بذاتها ومن نوع خاص قد يبتعد قليلاً عن مجال اختصاصنا وإهتمامنا فى هذا البحث ، أما إذا أسترسل حديثنا وبحثنا فى مجال الكيفيات التاريخية لهذا الموضوع فإننا نستطيع القول : بأنه قد ثبت بأن للإنسان البنى موقفاً متميزاً وقصة متميزة فى تعامله مع بيئته الجغرافية ، نابعة من مميزات وخصوصيات هذه البيئة نفسها ، كانت وما تزال ماثراً دهشة واستغواب الكثيرين ، رغم أن معظم فصول هذه القصة لم يكشف عنها كاملة ولم تتواصل حلقاتها بعد .

(١) شوقى عبد الحكيم : أساطير وفولكلور العالم العربى ، الجزء الأول ، طبع مؤسسة روز اليوسف ، نوفمبر عام ١٩٧٤ ، ص ٣٥ .

وإذا كان موقف الإنسان وتفكيره وتصرفاته هو دائماً إنعكاس مباشر لواقعه وممارساته العملية في صميم هذا الواقع من حولة وتعامله الدائم معه ، فلننأ إذا ما أردنا بناء على ذلك أن نبأ ونفسر البعد التاريخى لعلاقة الإنسان النى برقعه الأرض الزراعى منذ فجر التاريخ أو أن نبأ عن الدلالات الإقتصادية للقوى الإنتاجية فى المجتمع البنى القديم على الأصأ ، فانه لابد وأن نشأص أولاً طبيعة الواقع الإأقتصادى والجغرافى والمناخى لهذه الأرض والذى يشكل الأساس الأول لنوعية سلوك الإنسان وتفكيره وتصرفاته ومواقفه نحوها ، والمأأخل الوحيد لتفسير هذه المواقف والتصرفات فى هذه القضية الهامة التى نحن بأصدأ بمأها (قضية الإنسان والأرض) ، وبأعبير أوضأ قضية (قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج فى المجتمع البنى القديم) .

(أ) التركيب الجغرافى والمناخى

أقع البنى على بأأأأأ عشرة درجة شمال أخط الإأأواء ، ويعيش عليها قرابة عشرة ملايين نسأ فى الشمال والأأوب ، وهى عبارة عن أهضة بركانية شأيدة الأأرس والأرأأاف عن سطح البحر ، بالنسبة لما يحيط بها من المسطأات الهائلة والمأرامية الأطراف من الصأارى الرملية القأاحلة فى إأأاه الشمال والأشرق ، والبحار والمحيطات الوأسة فى إأأاه الغرب والأأوب حيث أأود هذه المسطأات البرية والبحرية المحيطة بالببنى مناأات قارية إأأوائية شأيدة الحرارة والجفاف ، بما فى ذلك المناطق الساحلية فى الغرب والمأأأة للصحراء فى الشمال والأشرق للببنى ، حيث يبدأ بأها فجأة مناأ الأهضة المأأأل والمأأش طوال العام ، وحيث أأأأر الأأصرة والجو أأى والهواء المأأأل والطبيعة الجأأبة والمأرية أأأا ، والأى أأأأل بالنسبة لما أأها من المسأات البحرية والبرية القأاحلة مأأأا لأياة الصحراء وأرارأها الشأيدة وأأأها السعيدة فعلاأأ وصفها أقأاء الرومان .

وبذلك لاأأأ لأهلها مكانا شأيد الإأراء والسأر بالنسبة لإنسان الصحراء القأاحلة فى الأشرق والشمال ، والمناطق شبه الإأأوائية عند سواأل البحر والسواأل المأأألة من أفريقيا فى إأأاه الغرب والأأوب ، شأيدة الحرارة

والرطوبة فحسب ، بل إن هذه الهضبة اليمينية بما تشتمل عليه من تركيب جبلى شديد الانحدار والتضرس تقدم لأهلها أيضا إغراء غير محدود للتمرد وحب الرفض ونزعة التحدى وروح المبادرة والإعزاز بالنفس عبر التاريخ والميل إلى العزلة أحيانا .

كما أن هذه الهضبة البركانية ظلت عبر التاريخ وماتزال مكانا شديدا الحساسية والإغراء بالنسبة للعالم المحيط بها، وهى بالنسبة لأهلها أشبه ماتكون بوكر النسر الذى يرسل نظراته من خلاله على كل الأشياء من حوله ويحاكمها بلا خوف وبلا أية شروط مسبقه ، ويمارس فيه كبريائه وعناده ، مكثف فى سبيل ذلك بأقل اسباب البقاء وأكثرها عناء ومشقة حتى اليوم^(١).

(ب) الموارد الاقتصادية

لن نعوزنا الحاجة فى هذه النقطة إلى الدخول فى تفاصيل أكثر حول أهمية العوامل الاقتصادية فى تشكيل حياة كل المجتمعات البشرية ، وانماط تفكيرها وسلوكها وعلاقات أفرادها وجماعاتها مع بعضهم البعض ، فتلك بديهية مفروغ منها ، ويكفى أن نشير هنا إلى الخصوصيات التى يتميز بها المجتمع اليمنى فى هذا الشأن ، ونؤكد بأن حجم الثروة الاقتصادية والموارد الطبيعية فى اليمن القائمة على زراعة المدرجات والمنحدرات والوديان والسهول التى يعتمد معظمها على الأمطار الموسمية غير المستقرة فى كميتها وشبه المنتظمة فى مواعيدها ، هذه الموارد لم تكن من الوفرة والانتظام بحيث تسمح بحاله من الاستقرار والإسترخاء والإطمئنان المطلق للظروف ، ولانستطيع أن تقدم أية حدود دنيا من الضمانات والركون إليها ، كما هو الحال بالنسبة لسكان وادى النيل وغيره من الأنهار والريديان النهرية دائمة الجريان ، والتى توفر لأهلها ضمانات إستقرار غير محدوده ترافقها حالة من الاطمئنان والاسترخاء إلى درجة اللامبالاه ، وتدنى مشاعر القلق إلى حد كبير .

(١) راجع فى هذا كتابنا : التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ، دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى . وبالذات الفصل السابع بصفة عامة . مركز الدراسات اليمينية صنعاء ،

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن هذه الموارد لم تكن من القل والشح والندرة بحيث تعجز عن إطعام سكان هذه المنطقة أو لاتباح لهم وفرة من الوقت للتفكير والعمل فى الأمور غير المباشرة فى حياتهم كبشر ، ولكن العكس هو الصحيح ، فهى تكفى جدا لسد إحتياجاتهم الضرورية وخلق وفر معقول من الوقت للعمل والتفكير غير المباشر ، لكن كفايتها هذه لاتوجد لها أية ضمانات مستقرة ومنظمة ، وهى لذلك مقرونه دائما ببذل جهود غير عادية من العمل فى مواجهة الظروف الطبيعية القاسية والصراع الدائم معها بلا توقف ، والمصحوب دائما بحالة من الشك والقلق وعدم الاطمئنان والركون إلى ما هو موجود ، والتطلع دائما إلى مالم يوجد بعد ، وإلى ما يمكن أن يحدث فى المستقبل ، وتلك هى نقطة الارتكاز الأولى فى هذا الموضوع .

ذلك أن الوفرة فى البيئة الطبيعية - كما يقول الدكتور الجوهري - ليست فى ذاتها دافعا إلى التقدم الاجتماعى والنمو الاقتصادى ، ذلك أن البيئة التى تفيض بالخيرات الطبيعية قد تكون معوقة للنشاط الاقتصادى الرشيد ، لأنها لاتعلم الانسان فضائل الادخار وتدير الأرزاق ، عل خلاف البيئة الفقيرة نسبيا^(١) . فحاله القلق وعدم الركون إلى إستمرار وإنتظام موارد الحياه الاقتصادية فى المجتمع البنى القديم مع عدم عجزها عن توفير الحاجات الضرورية لعدة ملايين من البشر عبر آلاف السنين قد أمهم إلى حد كبير فى تنمية وتكوين عقلية إجتماعية مرنة جداً ، ومنطلقة وغير مقيدة ، ودائمة التطلع إلى ما يتجاوز حدود واقعها المعطى ، ومشبعة دائما بروح الحذر وعدم الركون للامر الواقع أو الأستسلام له تحت مختلف الظروف ، ومحاولة الأمساك دائما بزمام المبادرة والأستعداد لكل الاحتمالات المتوقعة وغير المتوقعة .

ونظرة سريعة إلى تعامل الفلاح البنى مع أرضه الزراعية وما يحيط بها

(١) د . محمد الجوهري : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، دار المعارف المصرية الطبعة الأولى ، ١٩٧٨ ، ص ٥٨ .

من ظروف ومتغيرات طبيعية مختلفه حتى اليوم هى جديرة بأن تؤكد لنا صدق الحقيقة العلمية السابقة ، فالمزارع اليمنى مثلاً يضع فى إحتاله توقف هطول الأمطار لبعض الوقت أثناء وجود المحصول الرئيسى فى الأرض ، بحيث يؤدى التوقف إلى تدهور كبير فى كمية الناتج فى النهاية ، فيبادر فى نفس اللحظة إلى إقتلاع المحصول الرئيسى من الأرض نهائيا واستبداله بمحصول اخر يتناسب مع موسم المطر وكمية هطوله التى تمت بالفعل أو المتوقعة ، وقد يحدث العكس تماما حينما تكون كمية الأمطار أكثر من اللازم فتجرف الأرض وتفسد المحصول ، كما أنه قد يفاجأ بهطول أمطار غزيرة فى وقت لم يكن متوقع هطولها كثيرا بهذه الكمية ، فيبدأ منتهزا الفرصه بزراعة الأرض بالمحصول المناسب لكمية الأمطار فى هذا الوقت من السنة ويجنى بذلك محصولا وفيرا غير متوقع ، وقد يتوقع مرور موسم كامل دون أن يجنى أية محصول رغم محاولاته الكثيرة والمتكررة ، فيعمد إلى إقتلاع المحصول نهائيا وإراحة الأرض الزراعة فى هذا الموسم نهائيا ، والاستعداد للانتقال إلى المناطق المجاورة حيث يكون المحصول وفيرا ، للعمل هناك حتى نهاية الموسم أو الهجرة إلى الخارج حتى يتمكن من تأمين معيشته طوال العام .

كما أنه قد يظل فى عملية صراع دائم فيما يتعلق بتوفير الكمية الكافية من المياه لرى المحصول من خلال عمل القنوات والمساقى التى تعترض مجرى السيول المنحدرة لى بوجهها إلى قطع الأرض المتناثرة هنا وهناك التى يملكها ، وقد يحدث العكس تماما بين لحظة وأخرى حينما يعانى الأمرين فى سبيل تجنب قطع الأرض هذه ممرات المياه الغزيرة وشديدة الانحدار التى تتجاوز حد الحاجة ، وتشكل خطرا ليس على المحصول فحسب ، بل وعلى الأرض نفسها ، حيث قد تقوم السيول بجرفها وتدمير مدرجاتها المسطوية المعقده البناء . ناهيك عما يواجهه المزارع اليمنى من مشاكل الزراعة التقليدية كالأفات الزراعية التى تصيب المحصول بالأمراض المختلفة التى يعانى منها أى مزارع .

كما أن الأزدهار التاريخى لأعمال التعدين والصناعة والحرف اليدوية الراقية التى إشتهر بها اليمنى القديم إلى جانب شهرته فى أعمال التجارة الداخلية والخارجية هو تعبير آخر عن تلك الحقيقة نفسها .

فظروف إقتصادية وطبيعية كهذه جديدة بأن تفرز حالة إجتماعية وذهنية شديدة المرونة والأنطلاق ، وقادرة على تغيير مواقفها وتطلعاتها بسهولة من وقت لآخر على نحو ما سبقت الإشارة ، وأن تشكل ومن باب أولى تربية خصبة وبيئة مناسبة لنمو الاتجاهات والمفاهيم العقلانية ، كمفهوم أساسى بالضرورة فى حياة المجتمع وتراثه وحضارته بصفة عامة ، قليلة الميل إلى الثبات والرتابة والغلو فى الميتافيزيقيات والخرافات أو القبول بالأمر الواقع ، وهو الأمر الذى استناوله بتفصيل أكثر فى الفصول القادمة .

(ج) العوامل السياسية والأستراتيجية

إن العاملين السابقين بكل أبعادهما وتفاصيلهما التى لا مجال للحديث عنها هنا قد رافقتها وأقرنت بها عوامل إستراتيجية وسياسية ، كانت وما تزال تفرض نفسها على هذه المنطقة ، ولكنها لم تكن لتتعارض فى محتواها أو تتناقض على خط مستقيم مع العوامل الأقتصادية والطبيعية الابقية بصفة عامة ، بقدر ما أنها قد مثلت عوامل مساعدة ومنشطة لها بصورة مباشرة وغير مباشرة إلى حد كبير .

فاليمين تقع ضمن منطقة الشرق الأوسط التى نبعت منها أكبر الديانات السماوية فى تاريخ البشرية وأثرت فى مجرى تاريخها تأثيرا عميقا حتى اليوم ، وأرتبطت بها أبرز أحداث التاريخ الإنسانى القديم والحديث ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد كانت وما تزال تشكل همزة الوصل وقنوات العبور بين الشرق والغرب والشمال والجنوب فى العالم القديم والحديث وإلى ما لا نهاية ، وهى بذلك جزء من كل هذا العالم وعلى صلة دائمة به لا تتوقف ، واليمين من جهة ثالثة كانت وما تزال من أشد أجزاء هذه المنطقة حساسية وإغراء لاطماع الغير ، نظرا لما تتمتع به من موقع إستراتيجى فى قلب هذه المنطقة على مدخل البحر الأحمر والمحيط الهندى وما تفيض به كتبائها ووديانها وجبالها من طبيعة نقيه وساحرة وخيرات كثيرة ، وقدرة هذه المنطقة الصغيرة نسبيا على توفير العيش الكريم لعدة ملايين من البشر عبر التاريخ ، والذى عجزت عن توفيره ملايين الأميال والكيلومترات من الصحارى والمسطحات المائية المحيطة ، حتى إكتشاف البترول فى العقود الوسيطة من هذا القرن .

ولقد كانت اليمن وما تزال رغم ضعفها وتخلفها السياسى والاقتصادى حتى الآن هى مفتاح منطقة الجزيرة العربية بكاملها وشرق أفريقيا أيضا ، وصمام أمنها واستقرارها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً بلا منازع . ولقد دفعت اليمن غالباً ثمن جاذبيتها ومغرياتها وحساسيتها هذه وما تزال فى مراحل ضعفها تجاه هجمات الغزاه وأطماعهم وخوفهم أيضا الذى لم ينقطع ، بالقدر الذى أستفادت منه فى فترات قوتها وأزدهارها الحضارى من كل هذه العوامل واستثمرتها إلى أقصى حد داخل حدودها وخارج حدودها ، عبر تاريخ طويل من الكر والفر والمعنى الحضارى الذى مارسه سكان هذه المنطقة مع مختلف الشعوب والأمم القديمة والوسيطه ، ضمن دائرة حيه من الأخذ والعطى الذى لم ينقطع حتى الآن .

نتائج وإستخلاصات

إن الخيط الرفيع المليء بالاحتمالات والتقلبات هلى نحو ما راينا والذي ظل يربط بين الإنسان اليمنى والأرض الزراعية التى يعيش عليها ويثته المحيطة برمتها قد أدى إلى ثلاث حقائق هامة لم تتميز بها علاقة المزارع اليمنى بأرضه ووطنه فحسب بل لقد تميز بها الطابع الحضارى لهذا المجتمع برمته منذ فجر التاريخ وحتى اليوم ، وهى تتمثل فى :

١ - الحقيقة الأولى هى الميل الواضح للإنسان اليمنى بصفة عامة والفلاح بصفة خاصة إلى عدم الأطمئنان إلى عوامل الطبيعة المحيطة به وسحب الثقة منها كمصدر ثابت لمعيشته وبقائه بصفة تلقائية رتيبة، ومال بدلا من ذلك إلى الأمساك بزمام المبادرة وفرض نفسه عليها فرضا وأنزاع كل أسباب بقائه عليها فيما يشبه عملية القسر والتحدى المستمر معها بطريقة عجيبيه، ففى مثل ذلك التكوين الطبيعى - كما يقول الأستاذ محمد انعم غالب - لم تعد الأرض منحة الطبيعة ، فمعظم الرقع الأرضية إحتاجت إلى مجهود إنسانى مباشر لتكون منتجة ، وبكلمة أخرى مالت الأرض المنتجة إلى أن تكون من خلق الإنسان لامن خلق الطبيعة . (١) وتلك هى الحقيقة الأولى .

(١) محمد أنعم غالب : نظام الحكم والتخلف الاقتصادى فى اليمن ، طبعة القاهرة

٢ - أما الحقيقة الثانية وهى نتيجة لما قبلها وانعكاساً مباشراً لها فهى أنه حينما حقق الإنسان البنى نجاحات كبيرة من خلال هذا المنطلق الإيجابي فى التعامل مع البيئة المحيطة به منذ زمن مبكر ولمساكه بزمام المبادرة تجاهها فقد مال إلى الغلو والمبالغة فى إثبات تفوقه عليها والرغبة فى قهرها عنوة واقتداراً بمقاييس تتجاوز ميلها هى - بحكم طبيعتها تكوينها الجغرافى - إلى عدم تقديم الضمانات الضرورية والمستقرة لمعيشته عاياً ودوام إستعدادها للتخلى عنه فى أى لحظة اذا غفل عنها ، وتحديدها الدائم له بمختلف المصاعب والعوائق الجغرافية والطبيعية التى تتكون منها ، سواء من حيث التكوينات الجبلية شديدة التضرس والانحدار المنعزلة عن بعضها البعض أو ارتفاع نسبة الأمطار فى منطقة معينة وانتشار الجفاف فى أخرى ، أو تناقص مقاييس درجة الحرارة إلى حد التجمد ، ابتداء من مناخ استوائى شديد الحرارة على ساحل البحر الأحمر والبحر العربى غرباً وجنوباً إلى الانخفاض والبرودة كلما اتجهنا صعوداً نحو قمة الهضبة لتصل درجة التجمد فى القمة على ارتفاع ثلاثة عشر ألف قدم فوق سطح البحر وعبر مسافة تتراوح ما بين مائتين إلى ثلاث مائة كيلومتر على الأكثر من مختلف الاتجاهات وتلك هى الحقيقة الثانية .

٣ - أما الحقيقة الثانية فهى أن هذا النمط الحياتى والحضارى القائم على أساس الفعل المادى قد كرس فى حياة الإنسان البنى وتاريخه عقلية منطلقة ومتحررة من كثير من القيود والميتافيزيقيات والحزافات الغيبية ، لأن ديمومة وضرورة الفعل ورد الفعل المادى بين الإنسان والأرض والتكامل والتكافؤ العجيب فيما بينهما كأساس جوهري لاستمرار البقاء لم تدع له فرصة للغلو فيما وراء الطبيعة والميتافيزيقيات لكى يشكرها ويعبدها على ما تفيض به عليه من وافر الخير الكثير بدون أى عمل يذكر على غرار ما حدث فى وادى النيل ودجله والفرات وغيرها من مناطق الحضارات النهرية القديمة والحديثة ، أو لكى يسترضيها بأن تمن عليه بأقل ضرورات البقاء بعد أن أخفقت كل جهوده فى توفير ذلك منها على غرار ما يحدث فى المناطق الصحراوية والمناطق النادرة الموارد الاقتصادية الأخرى ، ذلك أن التوازن والتكافؤ الملحوظ بين ما تفيض به البيئة الطبيعية البنية من موارد اقتصادية ومغريات طبيعية وبين

ما يتطلبه ذلك من ضرورة تشغيل طاقات الإنسان وقدراته العقلية والبدنية إلى أقصى حد قد شكل المدخل والمفتاح الرئيسى الذى يتاح من خلاله معرفة وتفسير الحياة الاقتصادية والاجتماعية برمتها فى هذه المنطقة ، وما تتميز به من خصوصيات ذاتية وموضوعية أساسية وشديدة الموضح ، فهذا التكافؤ والتوازن العجيب بين عطى الطبيعة السخى وما يتطلبه من جهد إنسانى مباشر ومكثف قد حال دون أية فرصة تذكر لانتشار الوسائط الغيبية والمتافيزيقية من عقائد وأساطير وغيرها ، أو الاجتماعية من تسلط فردى أو طبقي أو نحوه . لكى تتدخل كثيراً فى هذه المعادلة الدقيقة ، التى يتناسب طرفها تناسباً طردياً بلا حدود ، أى أن الظروف الطبيعية والبيئية النجنية تستطيع أن تعطى بقدر ما يبدل فيها من جهد ، ولا توجد حدود قصوى لنفاذ خيراتها ، بنفس القدر الذى لا توجد حدود قصوى لفعل الإنسان فيها وتطور هذا الفعل نحو الأفضل ، والعكس بالعكس صحيح فهى لا تكاد تعطى شيئاً يذكر بدون جهد بشرى مضمئ مباشر .

ولقد تطورت وزادت حدة فاعلية هذه الحقائق والدلالات التاريخية التى تنظم علاقة الإنسان البنى بالأرض إلى مقاييس من التعامل والفاعلية الحضارية تجاوز الإنسان البنى معها حدود متطلباته الاقتصادية والمعيشية الضرورية ، بل لقد مال هذا العامل فى بعض مراحل التاريخ المزدهرة لأن يكون من الدرجة الثانية . فى مقابل ما تشبع به هذا الإنسان منذ زمن بعيد وحتى يومنا هذا من رغبة وميل دفين إلى تأكيد قدرته على تحدى ومنازلة هذه الطبيعة والبيئة التى من حوله ، وكما لو كان يعيش معها دائماً حاله حرب مستمرة لمجرد حرصه على الشعور نحو نفسه بأنه أقوى منها وقادر على فرض كبريائه عليها ، وإشباع الكثير من المطالب النفسية والمعنوية التى تتجاوز بكثير حدود المطالب الاقتصادية والمعيشية ، وميل هذه الأرض لأن تكون من صنعة لا من صنع الطبيعة كما سبقت الإشارة .